

جوهـر الحضارة في مشروع مالك بن نبي

ب.تفاحي فتيحة/جامعة

سعيدة

ملخص المقال

إن شهادة مالك بن نبي على العصر، أثارت اهتمامه بالإشكاليات، والقضايا الكبرى التي عانها العالم الإسلامي، من تخلف وانحطاط وقابلية للاستعمار، فوقف على الأسباب الحقيقية لهذه الأزمات، وأقرّ أن مشكلة كل شعب في جوهـرها مشكلة حضارية لذلك لا بد من تأسيس مشروع حضاري إسلامي جديد للنهوض بعقول ملايين البشر، وبيّن أن الحل يبدأ من الداخل (الذات) لا من الخارج (الغير)، من خلال انتقال الشعوب، بتجاوزها الفقر والبؤس والعجز، إلى العمل والفعالية، والتحول من مجال المطالبة بالحقوق والمكافآت، إلى القيام بالواجبات لصنع الحضارة.

Summary

Malik bin Nabi, a testament to the times, intrigued Problem major issues of the Islamic world that suffered from backwardness and degeneration and portability of colonialism stood on the real causes of these crises, and acknowledged that all the people of the problem, in essence, a cultural problem that needs to be established civilizational project Islamist new for the advancement of the minds of millions of people and between the solution begins at home (self) is not from the outside (of others), through the transmission of peoples, lead to poverty, misery and disability to work, effectiveness, and transformation of the area claim rights and rewards to carry out the duties for the manufacture of civilization.

توطئة

عرف العالم العربي جموداً فكرياً جعله خارج التاريخ مدة زمنية طويلة حتى أخرجه الغرب من دائرة الإبداع والعتاء، إلى أن اقتحم على حد تعبير أحد المفكرين - الفكر العربي الإسلامي ثلاثة مفكرين من العالم الثالث هم مالك بن نبي، علي شريعتي، أبو الأعلى المردودي، من منطلق أنهم عالجوا مشاكل وقضايا العالم العربي والعالم الإسلامي اقتصادياً ، ثقافياً ، سياسياً ، و اجتماعياً، وحاولوا علاج ما أصابه من المرض، أملين أن تجد دراساتهم سير النهضة. يصرح مالك بن نبي « ومن الممكن ان نفحص الآن سجلات هذه الحقبة، ففيها كثير من الوثائق والدراسات، ومقالات الصحف، والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضة. هذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا والفقر والبؤس هناك، وانعدام التنظيم، واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى، ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، أعني دراسة مُرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لم تدع مجالاً للظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون.»¹

في هذا الصدد اهتم العديد من المفكرين، والمصلحين وعلماء الدين، بمسألة الحضارة ودور الفكر الديني فيها، ما دامت المشكلة الجوهرية في حياة الشعوب هي مشكلة حضارة، والوصول إلى حلها يرتبط أساساً بالوقوف على عوامل نشأتها وبنائها، وكيفية ازدهارها، وأسباب فشلها وأفولها، كان للدين دوره في كل ذلك. يقول مالك بن نبي: "إن قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ، فجوهر الدين -حسب العبارة الشائعة- مؤثر في كل زمان ومكان"² وقد أشاد بدور الحركات الإصلاحية، ونشاط المصلحين الذين كان لهم دورهم في تنوير العالم الإسلامي لأنه « كان بحاجة إلى فكر ثوري كفكر (جمال الدين الأفغاني) يدعو إلى التقدم من أجل إعادة البناء أو إلى فكر منهجي يجري عمليات التجديب الضرورية لتحرير النظام القائم على أساس منهج مرسوم، وكان لابد أولاً من إحصاء تلك العمليات الضرورية بأن يميز خبيث (التقاليد) من طيبها.»³

السيرة العلمية والفكرية لمالك بن نبي

1 - مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ص 40.

2 - المصدر نفسه، ص 58.

3 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، (دط)، دمشق، ص 57.

مالك بن نبي من مواليد 1905م بمدينة قسنطينة¹ وأنهى دراسته الثانوية بها، وبعدها غادر إلى فرنسا وقام بالتسجيل في معهد الدراسات الشرقية لكنه قوبل بالرفض كونه جزائري مسلم، وفي عام 1935 تخرج مهندساً كهربائياً من معهد اللاسلكي، وقد سمح تكوينه كمهندس من جهة، وثقافته المزدوجة من جهة أخرى-من دون شك- من البحث والتحليل الموضوعي لمشاكل العالم العربي الإسلامي .

ترك وراءه ارثاً فكرياً ضخماً يربو على ثلاثين كتاباً كان همه معالجة قضايا المسلم المعاصر، اهتم بمسألة الإصلاح، والبناء الحضاري والوحدة المغاربية، وفكرة الوحدة الإسلامية، عام 1963 عاد الى الجزائر وتقلد مناصب عدة أهمها وزير التعليم العالي وما لبث أن استقال عام 1967 من أجل التفرغ للكتابة والإنجاز الفكري، وكتابة مذكراته وقد عكس صورة نضاله الشخصي من خلال البحث عن أسباب الاستعمار وأثاره السلبية على الدين، والفكر والقيم، ويشيد بن نبي بشهادته على أحداث العصر «هكذا إذن فقد استقدت بامتياز لا غنى عنه لشاهد حينما ولدت في تلك الفترة»² على هذا الأساس كانت مذكراته «مذكرات شاهد يتحدث إلينا خلف ستار، وهو يحاول أن ينقل إلينا تبصره بالأحداث؛ وما هذه التفاصيل التي يقصها علينا إلا ليجسد رؤيته الفكرية عبرها. فشاهدنا شاهدٌ بصر وبصيرة معاً، وهي بصيرة صاغت أحاسيس جزائري امتد به عمق الحضارة الإسلامية إلى حدود الحضارة الغربية الحديثة، فكان نقطة اتصال وتحول كما يقول في بداية شهادته»³

الحضارة والفكرة الدينية

1 - عيد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، بيروت، ص 51.

2 - مالك ابن نبي، مذكرات شاهد على القرن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، دمشق، 1984، ص15.

3 - المصدر نفسه، ص 8.

أقر مالك بن نبي أن كل حضارة تنطلق من عوامل ثلاثة « الإنسان. التراب. الوقت. وفي هذه العوامل ينحصر رأس مال الأمة الاجتماعي الذي يمدّها في خطواتها الأولى في التاريخ.»¹

تعتبر الفكرة الدينية دافعا للحضارة، ما يجعل هذه الأخيرة تنتهي بانتهاء هذه الفكرة، يقول مالك بن نبي: "إن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة مادامت هناك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ "حضارة"² ما يعني أن حضور الفكر الديني مهم وضروري في نشوء أية حضارة، لأنه يركب بين العناصر الثلاثة لتصير فعالية ومبدعة. للدين أثر في دورة الحضارة «فالحضارة لا تبعث إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها، ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية»³ ويصرّ على أهمية الدين الاجتماعي « دوره منحصر في أنه يقوم (بتركيب) يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني، ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من (الإنسان) العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من (الوقت)-الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة (بساعات تمر)- وقتا اجتماعيا مقدر (بساعات عمل)، ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان.»⁴

وعلى أساس ذلك فإن «مشكلة كل شعب في جوهرها مشكلة حضارية، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي نبني الحضارات أو تهدمها»

فالحقيقة العلمية تؤكد أن «الماء في حقيقته نتاج للهيدروجين والأكسجين، وبرغم هذا فهما لا يكونانه تلقائيا، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ماء، بدونه لا تتم عملية تكون الماء. وبالمثل لنا الحق في أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي الآتي مفصلا، نجد أن هذا المركب موجود فعلا، هو الفكرة الدينية التي

1 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 50.

2 - المصدر نفسه، ص 57.

3 - المصدر نفسه، ص 50.

4 - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص 32.

رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ.» فكل حضارة تنبعث من عقيدتها وأصلها الديني، فالحضارة الإسلامية مثلا، كانت وليدة الدين الإسلامي. فالوازع الديني المسيطر على روح الفرد له دور في فاعلية عناصر الحضارة. «ويخالف مالك بن نبي كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في هذا المجال، فبينما يرى الأفغاني أن إصلاح أوضاع المسلمين يتم بإصلاح العقيدة وأساليب الوعظ، يرى مالك بن نبي أنه من العيب وضع ستار حديدي بين الحضارة التي يريد تحقيقها العالم الإسلامي وبين الحضارة الحديثة»¹

ويصّر مالك بن نبي على ضرورة بناء حضارة إسلامية، موطنها الأرض الإسلامية، وحاملها الفرد المسلم، بأعرافه وتقاليده» ومن المؤكد أنه عندما نتناول الحضارة الإسلامية فلا بد من أن يدخل بالضرورة عاملان هما: الفكرة الإسلامية التي هي أصل الاطراد نفسه، والإنسان المسلم الذي هو السند المحسوس لهذه الفكرة.² ومقابل الإصرار على تحقيق مشروع الحضارة تطرق "مالك بن نبي" لمشكلة التخلف التي أرجعها إلى أسبابها الحقيقية والمباشرة، مبينا أن الحل ينطلق من الذات على الغير، من خلال انتقال الشعوب، وتجاوزها الفقر والبؤس والعجز الى العمل، والفعالية و التحول من مجرد المطالبة بالحقوق والمكافآت إلى القيام بالواجبات لصنع الحضارة، وهذه الاخيرة تتكون بطريقة منطقية من معادلة الإنسان+ التراب+ الوقت، وحين تغيب الشروط الفكرية والأخلاقية، والاجتماعية الضرورية، يغيب بالضرورة فعل التحضر. «أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسوده من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها أيضا من نقائص تعترى كل شعب نائم.»³

قابلية الدول للاستعمار

كان مالك بن نبي شاهدا على فترة مظلمة من تاريخ الجزائر، وقف على مخلفات الاستعمار العنصري وعلى الدمار الذي أحدثه على جميع المستويات، وعاش الحرب العالمية الاولى

1 - أحمد علي ويس، مشكلات الحضارة في فكر مالك بن نبي، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإسلامية، ص 277.

2 - شروط النهضة، مصدر سابق، ص 66.

3 - المصدر نفسه، ص 34.

والثانية، وما خلفته من دمار وقتل عشرات الملايين من الناس، ما أتاح له الوعي بالظاهرة الاستعمارية فبين أن القابلية للاستعمار هي السبب الأساسي في تخلف العرب والمسلمين ويعتقد أن الظروف التاريخية والاجتماعية والنفسية، لشعب تجعله يقبل الاستعمار، «إن الاستعمار ليس مجرد عارض، بل هو نتيجة حتمية لانحطاطنا، هذه هي المشكلة ولا يوجد جدوى من فكرة لا تسلم بهذا المسلم الاساسي، الذي يبرره بن نبي هو أنه لكي لا نكون مستعمرين، يجب ان نتخلص من القابلية للاستعمار»¹

مما لا شك فيه، أنه كان محقا، لماذا لا يمكن لأية دولة من دول العالم أن تفكر مجرد التفكير في استعمار الولايات المتحدة الأمريكية بكل بساطة لأنها أبدعت جميع الآليات و على جمع المستويات ما يؤهلها لمنع فكرة "القابلية للاستعمار"؛ لأنها أيضا تملك مقومات الزعامة على الشعوب المتخلفة، وها هي اليوم تقود الحركة الاستعمارية الجديدة، وتغزو الدول إما بصورة مباشرة كما حدث في العراق وأفغانستان.. أو بطريقة غير مباشرة -الغزو الثقافي- كما هو حاصل في مجتمعاتنا اليوم.

على أساس ذلك يبني مالك بن نبي فلسفته قائلا: « أما الحقيقة فهي تخص فلسفتنا الثورية بأجمعها فالثورة حين تخشى أخطائها ليست بثورة و إذا هي اكتشفت خطأ من أخطائها ثم التفتت عنه فالأمر أدهى و أمرّ و في هذا الصدد نذكر قول ماركس " يجب دائما أن نكشف الفضيحة حتى لا تلتهمنا.»² ما يعني أن الثورة الجزائرية لم تكن في منأى عن الأخطاء التي أثرت سلبا على سير الثورة. واستغلها المستعمر في سياسته الاستعمارية لذلك يقول مالك بن نبي: « إن القضية عندنا منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية، وقد قال أحد المصلحين " أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم»³ ويشيد مالك بن نبي بإسهامات المصلحين أمثال جمال الدين الأفغاني يقول «يجب علينا ان نضيف إلى هذا أن (الأفغاني) العظيم قد ترك لنا أفكار كذلك فيما كتبه من

1- المصدر نفسه، ص 9.

2 - مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، دار الفكر المعاصر، (دط)، سوريا، ص 18.

3 - مالك بن نبي، شروط النهضة، مصدر سابق، ص 154- 155.

أجل الدفاع عن العالم الإسلامي و في النهاية ابتدعت من أن أجل تبرير هذا العالم آلة ذات مقطع مزدوج فقد تمت المحافظة على ذائقة القيم الإسلامية، أو أعيد إنشاؤها لمواجهة سيطرة الغرب الثقافية عليه، ولكن في الوقت الذي كان يواجه فيه الاستعمار على هذا النحو، كان يحتفظ بمعطيات القابلية للاستعمار، أو هي كانت تترك دون مساس بها.¹ مما يعني أن القابلية للاستعمار تعبر عن التخلف، والسبات العميق اللذان يطلان الشعوب قرونا عديدة، قبل الاستفاقة على وقع الاستعمار وبعدها تبدأ المقاومة ومن ثم الثورة كما حدث في الجزائر مثلا .

فالتغيير الذي يحدث في الفرد وبعدها يعود على المجتمع يبرر العلاقة الوطيدة بينهما، لذلك كان الإنسان عنصرا أساسيا في معادلة الحضارة ، وبفضل التغيير يتحقق التجديد الحضاري وعليه فعملية التغيير تبدأ بالنفس ثم الوسط الخارجي لأن كل تحول اجتماعي مرهون بهذا التغيير وهذا ما يتأكد في قوله تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"² فالتغيير من منظور مالك بن نبي عملية تشترط القدرة على الابتكار والإبداع، والإنتاج وكذا التوجيه الأخلاقي والثقافي، والجمالي وتنبذ التبعية والتكديس. وهذا التغيير يتم أولا على مستوى النفس. ويصرح الأفغاني متفائلا بمستقبل الأمة العربية « دعوا العصر الجليدي يستحوذ على قارة أوروبا مرة أخرى، ويدور الدور الفلكي بمفعوله وتأثيره، ويجعل الحياة في هذا الإقليم متعذرا كما كان أولا، وانظروا إذ ذاك إلى نهضة الشرق-خصوص متى تغير شكل الحكم في أهله- فترون الشرق قد عاد مشرقا بالعلماء، زاهرا بحقائق العلوم، مثبتا مقررا لكل ما هو نافع ويصلح أن يبقى أثرا.»³

خاتمة

إن اهتمام "مالك بن نبي" بمشكلات الحضارة وأسباب نشأتها وعوامل انقراضها، وبالصراع الإيديولوجي والفكري في العالم العربي والإسلامي، وبفضية الإصلاح والتجديد. وكانت

1 - مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1991، ص 47.

2 - سورة الرعد الآية 11.

3 - مجدي عبد الحافظ، جمال الدين الأفغاني وإشكاليات العصر، المجلس الأعلى للثقافة، (دط)، مصر، 1997، ص 167.

بمثابة إنارة للرؤية اتجاه مسائل البناء، التنمية والتطوير. خاصة أن هذه الرؤية الفلسفية إلى الحضارة عبرت بصدق عن تطلعات الشعوب -ولاسيما العربية والإسلامية-

فقد جعلنا ندرك أن الأزمة التي يعيشها الواقع الإسلامي من مغارب الأرض إلى مشارقها في أساسها أزمة حضارية ثقافية، وللخروج منها لابد من تأسيس مشروع حضاري إسلامي جديد للنهوض بعقول ملايين البشر، يحصل ذلك بفضل جهودهم وعطاءهم، وبفضل هذه السواعد تتحقق الوحدة وتنشأ الوحدة.

فالحل يبدأ من الداخل أي من الذات، لا من الغير، على أساس انتقال الشعوب من الفقر والتخلف والعجز إلى العمل والفعالية والبناء، فهو يؤمن بأن العالم الإسلامي يملك من الإمكانيات والطاقات ما يسمح له بعلاج أمراضه وحل مشكلاته. وأعظم طاقة هي عقيدته الدينية؛ لأن الحضارات عبر تاريخها القديم والمعاصر، هي وليدة فكرة دينية معينة، مهما كانت طبيعتها.